حجاجية الخطاب الشعري

دراسة للامية الشنفرى

الدكتورة: مرسلي مسعودة

المركز الجامعي تيسمسيلت-الجزائر

تعد ظاهرة الصعلكة من أبرز الظواهر التي شهدها الأدب العربي على مر العصور، وقد حمل لواءها مجموعة من الشعراء نافحوا عنها وعن طريقتهم في العيش بخروجهم عن القبيلة وأعرافها، وكان الشنفرى من أشهر شعراء هذه الجماعة في العصر الجاهلي، إذ تجلت مبادئ الصعلكة في شعره وعلى وجه التحديد في قصيدته المعروفة بـ"لامية العرب". وقد عمل البحث على دراسة هذه القصيدة من أجل إبراز بعدها الحجاجي، ومدى توظيف الشاعر للآليات اللغوية لتأدية الوظيفة الإقناعية.

Résumé : Le paupérisme est considéré comme le phénomène le plus marquante qu'avait connu la littératu arabe au fil du temps , ce phénomène était promu par un tas de poètes qui avaient défendu leur façon de vivre, à savoire le détachement de la tribu et ses mœurs "Al Chanfari" était le plus réputé de ces poètes à l'ère préislamique. Ces principes du paupérisme se sont manifestés dans sa poésie , notament dans son poéme connu par "Lamiat al Arab". Cette recherche consistait à étudier ce poéme pour mettre en évidence sa dimension argumentative et à quel point les outils linguistiques ont utilisés par le poéte pour servir la fonction persuasive.

ظهرت التداولية بعد عدة تيارات لسانية لتعلن اهتمامها بالخطاب المتداول من خلال العملية التواصلية، وإن كان الانطلاق الفعلي للتداولية من المجال الفلسفي إلا أنها أصبحت فيما بعد أكثر تعميما واتساعا، وبقدر استفادتها من تخصصات معرفية عديدة قد أفادت منها مجالات أخرى كثيرة، منها تحليل الخطاب الشعري، وذلك بعد أن كثر الجدال حول حجاجية هذا الخطاب ومدى تراوحه بين الإقناع والإمتاع، وقد أصبح من شبه المسلم به أنّ الإمتاع الخالص لا وجود له إلا في تنظير بعض المدارس التي أغرقت في الإغراب والإيهام والتخييل.

وليس معنى هذا أن الشاعر يحاجج ويبرهن بالأدلة العقلية والحجج المنطقية كما يفعل غيره في مختلف الخطابات، فذلك يبعد الخطاب الشعري عن الأريحية التي يخلفها في نفس سامعه أو متلقيه، يقول القاضي الجرجاني: "والشعر لا يحبب في النفوس بالنظر والمحاجة، ولا يحلى في الصدور بالجدال والمقايسة"[1]، فالشاعر لا يسعى إلى الإقناع عن طريق الحجج والأقيسة بل يعمد أكثر إلى اتخاذ التخييل وسيلة للتأثير فهو بذلك يلبس المعاني الجليلة أثوابا من الألفاظ جميلة بهية، حتى يصل إلى شغاف قلب المتلقي، وليس ذلك إلا ضربا من ضروب الحجاج.

وبهذا التقديم يمكن أن نرخص لأنفسنا معالجة نص شعري بآليات تداولية، وقد وقع اختياري على خطاب من الخطابات الشعرية الأكثر تميزا، والتي مازالت أرضها خصبا تحتاج إلى البحث والتقصي مع كثرة دراستها، وهو ما اصطلح على تسميته بـ"شعر الصعاليك" والذي نسب إلى تلك الفئة من الشعراء الذين خرجوا عن المنظومة الاجتماعية السائدة -القبيلة ونظامها- في عصرهم، وفي مقابل ذلك تحرروا من نمط القصيدة العربية فأبدعوا شعرا يصدح بآهات المقهورين وأنين المضطهدين، ولعل أشد القصائد تعبيرا عن عن تلك الفئة "قصيدة الشنفرى" المعروفة بلامية العرب، ومن خلال هذا الموضوع نسعى إلى الإجابة عن إشكالية أساسية: كيف استطاع الشاعر الصعلوك أن ينافح عن المنهج الذي اختاره لحياته؟ وهل وفق الشنفرى في اختيار الوسائل اللغوية لتبرير مواقفه التي اتخذها؟

1-الصعلكة الظاهرة:

الصعلكة كغيرها من الظواهر الاجتماعية لم تنشأ من العدم، ولم تتكون مصادفة وإنما كان كان لها من الدوافع والأسباب ما هيأ لاكتمال صورتها، ولعل أهم تلك الأسباب طبيعة المجتمع الجاهلي ذي النزعة القبلية، والتي تولد عنها تدريجيا نوع من الطبقية والتمييز بين أفراد القبيلة، إذ كان هناك سادة يحظون بكل الامتيازات، وفقراء هم لهم تبع يعانون شظف الحياة وضنك المعيشة، ممن وجدوا أنفسهم وقد ولدوا لخدمة الأسياد، أو أولئك الذين أزرى بهم الدهر فحولهم من حال إلى حال جراء الأسر بعد الحروب والغارات، أو أولئك الذين أتوا بالجرائر تباعا فنبذهم المجتمع لسوء أفعالهم وتجنبا لتحمل تبعات أخطائهم، فأصبحوا من الشذاذ الخلعاء الذين لا انتماء لهم داخل القبيلة يهيمون على وجوههم في الفيافي والقفار[2]

ولما تباينت الأنفس في ردات أفعالها انقسمت تلك الفئات إلى قسمين، قسم ارتضى تلك المعيشة التي اصطبغت بالذل والهوان، وقسم أبى إلا أن يحيا بنفس عزيزة ولو كان العناء والشقاء صاحبا له، وهو ما عبّر عنه بكر بن النطاح:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

فالصنف الأول اتخذ الصعلكة منهجا للحياة يعتمد فيها على نفسه "حسامه" لكسب قوته، وقوت الجماعة التي معه "فما يميز الصعاليك عن غيرهم من الفقراء أنهم رفضوا أن يعيشوا عالة على غيرهم أو أن يجعلوا من أحد من الناس عمادا لهم"[3]، والصنف الثاني من الفقراء الذين ظلوا تحت وطأة الذل في كنف القبيلة لضمان المستوى الأدنى من العيش.

وقد أثبت الدارسون أن الصعلكة وإن كانت قد ارتبطت في العصر الجاهلي بالفقر إلا أنها اتسعت لتشمل نوعا مميزا من السلوكات يشمل "دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب"[4]، وهذا ما تشير إليه كثير من النصوص الجاهلية*.

إذن فالصعلكة ظاهرة اجتماعية تولدت من جراء ما عرفته البيئة الجاهلية بصحرائها القاسية من تمييز وفروق بين الطبقات، وقد تولد عن هذه الظاهرة الاجتماعية ظاهرة فنية إذ كان من هؤلاء الصعاليك نفر هم لسان حال العصابة التي ينتمون إليها، وأولئك هم الشعراء الصعاليك.

2- الصعلوك الشاعر:

كان الشاعر هو لسان حال القبيلة والناطق الرسمي باسمها والمخلد لمآثرها والذائد عن حياضها، ولذلك كانت القبيلة تحتفل وتولم إذا نبغ منها شاعر، فالشاعر والفارس سيان، ولكن تلك القبيلة هي ذاتها التي أقصت من لا يخضع لقانونها ولا يدين لسلطانها، فكان من هؤلاء المنبوذين فئة أجادت الشعر وعبّرت عن حالها وحال الجماعة الجديدة التي انتمت إليها، فراح الشاعر الصعلوك وبعد أن فك ذلك العقد الاجتماعي الذي كان بينه وبين قبيلته يعبر عن الجماعة الجديدة التي انتمى إليها ويصور حياتها ويصوغ قوانينها، فأبدع شعرا ردده الزمان من بعده رغم ما أصابه من إهمال، وذلك أنه لما كان الصعاليك "طائفة خارجة عن المجتمع، متمردة على أوضاعه وتقاليده [....] ونتيجة هذا أنّ القبائل لم تحرص على شعرهم لأنه يمثل ذلك الخروج عليها، وذلك التمرد على أوضاعها وتقاليدها، ولأنه حديث فردي يعني بتصوير شخصيات أصحابه يقدر ما يهمل شخصيات قبائلهم، وما حاجة القبائل إلى ذلك اللون من الشعر الذي لا يهتم بها في شيء بل على العكس يهتم بتسجيل تمرده عليها والإساءة إليها"[5]، زيادة إلى حياة الصعاليك الهائمين في الصحراء مما أسهم بشكل كبير في صعوبة حفظ ما نظموه من أشعار.

ومع ذلك فإنّ ما وصل إلينا من أشعارهم قد صور لنا بحق حياتهم وآمالهم وآلامهم كما دافع عن طبيعة ذلك المنهج الذي يحيون به كما قدم المبررات التي جعلتهم ينفرون من المجتمعات الإنسانية المتمثلة آنذاك في القبيلة ويرضون حياة البراري والفيافي وصحبة الوحوش والغيلان، فنجدهم قد "عبّروا عن ذلك التشرد بطرق فنية وصور شعرية تنم عن قدرة فنية، ورؤية اجتماعية نقدية، قد لا نجد مثيلاً لها في شعر كثير من الشعراء الفرسان الذين عاصروا هؤلاء الصعاليك"[6]، فكان شعر هؤلاء الصعاليك متميزا من الناحية الفنية والموضوعاتية، ليس

هذا فحسب بل إن الشاعر الصعلوك كان الصوت المنافح عن الجماعة، يهدف من خطابه أساسا إلى تبرير السلوكات التي يزاولها هو والعصابة التي التف حولها أو التفت حوله، كما يهدف من جهة أخرى إلى إقناع أولئك الخصوم المتمثلين أساسا في القبيلة التي هجرها أن ما يقوم به هو عين الصواب، مصورا أعلى مستوى من مستويات الصراع والمتمثل في "السعي إلى نفي الآخر [القبيلة] ومحو وجودها[ا] لتثبت وجودها [جماعة الصعاليك] وانتقاما لها واستردادا لحقها المهدور من قبل"[7]، فيسعى إلى إقناع المخاطب أنّ منظومة القيم التي تسير عليها القبيلة هي منظومة زائفة مبنية على الظلم والاضطهاد، وأنه قد أقام منظومة جديدة أساسها العدل والمساواة والإيثار، ولعل أبلغ شعر صور لنا هذه المعاني قول عروة بن الورد[8]:

مَا بالثراءِ يسودُ كلّ مُسوّدٍ مُثْرٍ ولكن بالفعالِ يسُود
بلْ لا أُكاثِر صاحبي في يُسْرِه وأصدّ إذ في عيشهِ تصريد
فَإذا غَنيت فإنّ جارِي نيله مِنْ نائِلي وميسرِي معهُود
فإذا افتقرت فلن أُرى متخشعاً لأخي غنى معروفه مكدود

وإن كانت القيم التي يذكرها الشاعر في هذه الأبيات يشترك فيها كثير من العرب الذين سادوا قبائلهم إلاّ أنه يلمح إلى أن السيادة لا تنال إلا بالإيثار والتعفف خلافا لما هو من أنها تنال أولا بالثراء.

3- القصيدة:

نشيد الصحراء أو لامية العرب من أشهر قصائد الشعر العربي وإنها لتنافس بشهرتها "قفا نبك" إن لم تفقها من حيث اهتمام الرواة بترديدها، وكذا عناية الدارسين بتناولها، ومما روي في الأثر "علموا أبناءكم لامية العرب [لامية الشنفرى] فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق"[9] لما فيها من تصوير للبداوة العربية، وقيم المروءة والشجاعة.

وقد اختلف في نسبتها إلى الشنفرى، وردد بعضهم أنها منحولة، في حين ذهب كثير من النقاد –من عرب ومستشرقين- إلى أنها ثابتة لصاحبها مستندين إلى حجج عقلية وتاريخية وحتى فنية[10]، ومن ذلك قول المستشرق جورج يعقوب: "إن موطن هذه القصيدة هي تلك المرابع في جنوب مكة بين الجبال التي تقع في شمال اليمن حيث مضارب الأزد قبيلة شاعرنا، إنني لا أفهم كيف يستطيع المرء أن ينكر هذه القصيدة التي تتنفس بعبير الصحراء، وترسم جاهلية العرب بكل نقاء، وتصور حياة رجل حمل أحقادا أورثته إياها مظالم الناس، وعقوق الأخوة، وجور العدالة، ويعزوها إلى رجل من بين أولئك اللغويين الذين يقتلون الوقت جدلا في إعراب جملة صغيرة"[11]، فهل يستطيع شاعر وإن كان متمرسا في حفظ الشعر ونظمه عاش في زمن معين أن

يذوب بمعانيه وألفاظه في عصر آخر مغاير تماما لعصره؟ فأنى لمن عاش بين القصور والحدائق أن يصدر عنه مثل ذلك التصوير البديع للصحراء بقرها وحرها، وحركة أسراب القطا العطشى، وسعي الذئاب الجائعة إلى قوتها، وتململ الأفاعي على الصخور من شدة رمضائها؟ فلا يصدر هذا الشعر إلا عن نفس امتزجت روحها بروح الصحراء فكانت كأنها سيرة ذاتية تحكي يوميات الشاعر الصعلوك في قفارها.

4- بين يدي الدراسة:

استهل الشاعر قصيدته بقوله:

أَقِيمُوا بَني أُمِّي صُدُورَ مَطِيِكُمْ فإنِّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ

استدل محقق ديوان الشنفرى بهذا البيت على إثبات نسبة اللامية للشنفرى مبررا ذلك بقوله: "لعل عادة التصريع لم تكن متبعة في زمن الشنفرى فتكون القصيدة من أقدم الشعر الجاهلي"[12]، ولكننا نقول ونحن في ظل ظاهرة ثورية هي ظاهرة الصعلكة إن هذا الملمح هو ملمح ثوروي على نمطية القصيدة العربية، فإذا كان بناء القصيدة العربية المنظومة في إطار سيادة القبيلة يقتضي بناء معينا نستدل من خلاله على البيت الذي استهل الشاعر به قصيدته من خلال التصريع كما يستدل من خلال العلو وغيره من المظاهر على بيت زعيم القبيلة، فالجماعة التي ينتمي إليها الصعلوك بنيت على أساس من العدل والمساواة لا سيد فيها إلا ذلك الذي يؤثر جماعته على نفسه فيطعمهم قبل أن يطعم.

إن استهلال الشنفرى قصيدته بالأمر المتبوع بالنداء "أقيموا بني أمي" يدل على النبرة الخطابية لهذه القصيدة، وأن ما سيقرره بعدها سيكون دستورا يحدد طبيعة العلاقة بينه وبين الجماعة المخاطَبة، وهذا يمثل شكلا من أشكال التواصل والذي يفتح باب المقاربة الحجاجية لهذا النص الشعري متجاوزين الحديث عن مدى تداولية الخطاب الشعري وبعده الحجاجي، وذلك لكثرة تناول تلك الجوانب النظرية، ولأنه قد أصبح من شبه المسلم به أن للشاعر أن يحاجج ولكن بوسائله الخاصة.

5-آليات الحجاج اللغوي:

5-1-ألفاظ التعليل:

من بين أهم الوسائل اللغوية المستخدمة في العملية الحجاجية ما سمي بألفاظ التعليل، والتي منها "المفعول لأجله، وكلمة السبب، ولأنّ، إذ لا يستعمل المخاطب أي أداة من هذه الأدوات إلا تبريرا لفعله أو تعليلا له، بناء على سؤال ملفوظ به أو مفترض"[13]، ولما كان

الشاعر في موضع إقناع لخصومه -القبيلة- بوقفه الذي اتخذه -الصعلكة- بالخروج عن القبيلة ونبذها فإننا نجده وظف العديد منها:

***إنّ:**

أَقِيمُوا بَني أُمِّي صُدُورَ مَطِيكُمْ فإنّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ

يعلن الشاعر رحيله عن قومه هؤلاء القوم الذين جعل بينهم وبينه نسب الأمومة مستخدما الرابط "فإني" ليتخيل المتلقي ضجة قائمة بعد ذلك الإعلان، وسؤالا مفترضا "ولم الرحيل؟" وإذ به يفاجئهم بجواب حاسم مؤكد "فإني إلى قوم سواكم لأميل" فرغبته في اللحاق بقوم آخرين كانت هي الدافع لرحيله عن قومه، فأخذت الجملة الثانية موقع العلة للجملة الأولى، وكان الرابط "فإنّ" رابطا مستعملا "لتبرير الفعل"[14]، ويمكن تمثيل ذلك كالآتي:

<u>أقيموا بني أمي صدور مطيكم</u> <u>فإني</u> <u>لقوم سواكم لأميل</u>

نتيجة رابط علة

إعلان الرحيل السبب سآمة عشرة قومه ورغبة في معاشرة غيرهم

***قد:**

استمر الشاعر في سرد الحجج التي دفعته للرحيل:

فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ واللَّيْلُ مُقْمِرٌ* وَشُدَّتْ لِطِيّات مَطَايَا وَأَرْحُلُ**

مستخدما الرابط "قد" التي تكون "دلالتها على التعليل مستفادة من السياق"[15]، فالرحيل بالنسبة إليه لم يعد خيارا قائما بين مجموعة من الاحتمالات وإنما ضرورة ملحة لا بديل عنها.

***إذ:**

وإنْ مُدَّتِ الأيْدِي إلى الزادِ لم أكُنْ بأعْجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القَوْمِ أعْجَلُ

من الأدوات التي استخدمها الشاعر للتعليل "إذ" التي "تقوم مقام أداة التعليل في السياق عن كونها ظرفا لتؤدي وظيفة لام التعليل"[16]، ففي ثنايا وصف الشاعر نبله وتعفف نفسه يعطينا صورة لتلك النفس الأبية التي تزهد في الزاد تفضلا –رغم حاجتها إليه- وعدم العجلة، ليعطينا قاعدة من قواعد السلوك الأخلاقي النبيل مفادها أنّ "أجشع القوم أعجل" مستخدما الأداة "إذ" لتعليل سلوكه، وهي في حد ذاتها علة لعدم تعجله لأخذ الزاد، وبذلك هي حجة قوية على سمو الأخلاق التي يتمتع بها هذا الشاعر.

كما قد ساهم أسلوب الشرط –في هذا البيت كذلك- عن طريق الأداة "إن" في بناء الوظيفة الحجاجية، ويمكن تمثّل ذلك كالآتي:

-شاعر صعلوك يسعى إلى تحصيل القوت مع (جماعته)
-إن توفر الزاد ومدت إليه الأيدي (الشاعر لشجاعته قد يكون هو السبب الأول في تحصيله)
-الشاعر لا يتعجل مد يده إلى الزاد (وإن كان يعاني ما يعانونه من جوع)
لنصل إلى نتيجة متضمنة في القول: [نبل الشاعر وقناعته]

***كي (كيلا):**

من الأدوات المساهمة في بناء الحجج وترتيبها وهي "حرف معناه العلة، والغرض من ذلك أنك إذا قلت قصدتك كي تثيبني فهم من ذلك أن الغرض إنما هو الثواب وهو علة لوجوده"[17]

وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلاَ يُرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

اعتاد الشاعر على الجوع حتى ألفه وما دفعه إلى ذلك إلا تلك النفس العزيزة التي يحملها جسم هزيل، وقد يصل به الحال إلى أن "يستف ترب الأرض" وما من علة لذلك إلا مخافة أن يتطاول عليه صاحب فضل بمنته، فقد ربطت "كي" بين نتيجة وعلة على النحو التالي:

أستف ترب الأرض ↓ كيلا ↓ يرى له علي من الطول امرؤ متفضل ↓

نتيجة	أداة	علة
التعفف		امتنان أهل المعروف

فرغم ما قد يعانيه من جوع وما يصيبه من حاجة إلا أن نفسه الأبية ترفض التذلل والخضوع خشية أن يمتن عليه متفضل بما أحسن به إليه.

***الوصل السببي:**

من طرق التعليل الوصل السببي "وهو أن يعمد المرسل إلى الربط بين أحداث متتابعة مثل الربط بما يمكن أن يكون المقدمة والنتيجة، فتصبح النتيجة مقدمة لنتيجة أخرى"[18]، وكثيرا ما يوظف الشاعر ذلك وفق ما يتلاءم مع خطابه الشعري، فقد ولد الشاعر الصعلوك وكان قدره أن يكون منبوذا داخل القبيلة التي ولد فيها لفقره وسواد بشرته، فأكره على الرحيل وأمّه* إلى قبيلتها فلم يجد ما كانت نفسه تتوق إليه من حرية وانعتاق، فاختار الرحيل مرة أخرى مكرها ليجعل من وحوش البراري أصحابا له، ومتخذا الصعلكة منهجا لحياته، ثم نظم

لنا هذه القصيدة مبررا ومعللا ما ذهب إليه، وقد عدد في أبياتها الأولى الأسباب التي دفعته إلى الرحيل الذي كان نتيجة حتمية لا خيار معها، إذ يقول:

وفي الأَرْضِ مَنْأًى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأذَى وفيها لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

لَعَمْرُكَ ما بالأرْضِ ضِيقٌ على امْرِىءٍ سَرَى رَاغِبا أو رَاهِبا وهو يَعْقِلُ

فهذان البيتان يرتبطان "بما سبق ارتباط السبب بالنتيجة، فهما سببان لقرار الرحيل المعلن سابقا، ولأن الحجاج في الشعر خلافا للنثر يقوم على الحذف والإضمار، فإن بين هذا الكلام وما سبقه رابط سببي محذوف وهو الأداة "لأنّ"، إذ الحاجة للرحيل أضحت أكيدة لأنّ الشاعر أدرك أن الأرض أوسع من أن تضيق على مثله وهي أوسع من أن تحدّ بأرض قومه"[19]، فمازلنا نتصور أنّ القوم قد ذهلوا بعد سماعهم خبر رحيل الشاعر فراح ببعضهم ينظر إلى بعض متسائلين عن سبب الرحيل، وراح هو في المقابل يذكر الأسباب ساعيا بذلك إلى إقناع نفسه وإقناع غيره بالطريق الذي اختاره، بل ويهدف إلى إقناع من رضي بالقعود والذل بأن يسلك سبيله لتحقيق العزة واستعان على ذلك بالقسم "لعمرك" والقسم يمتاز "ببعده التداولي الذي ينجز هدفا تعلو به قيم العدل والحق، وهذا يعني أنه حجة مباشرة وقاطعة في دلالتها على صدق الموقف"[20]، مما زاد من قوة الأسباب التي يبرر بها موقفه الذي أعلنه في بداية القصيدة.

وقد صاغ الشاعر "السببين صياغة عامة أخرجت البيتين مخرج الحكمة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان إلى مجال إنساني أرحب، فإذا بالشنفرى الصعلوك الشاعر وهو يتخذ قرار الرحيل ليس سوى أنموذج للكريم الفارّ من الأذى والعاقل المدرك لسعة الأرض التي تحضن آماله كما تجيره من مخاوفه"[21]، وهذا ما يحث عليه الشرع القويم والعقل السليم، فلا بقاء لامرئ في أرض يعيش فيها ذليلا وفي غيرها عزة ورفعة، قال تعالى: ﴿إنّ اَلذينَ تَوَفَّيهُمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أنْفُسِهِم قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنّا مُستَضعَفِينَ فِي الارضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنَ اَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[22].

***التراكيب الشرطية:**

يساهم أسلوب الشرط في بناء الحجج وترتيبها، فوظيفة الجملة الشرطية هي "توفير علاقة اقتضاء شكلي بين السبب والنتيجة، سبب يمثله الشرط، ونتيجة يمثلها جوابه في مستوى أول، وعلى توفير علاقة اقتضاء أيضا بين حجة يمثلها الشرط والجواب معا، ونتيجة يصرح بها المتكلم تارة، ويخفيها طورا في مستوى ثان"[23].

نجد الشاعر قد استعان بالكثير من أدوات الشرط لتساهم هي الأخرى في تحقيق حجاجية النص، إذ نجده يبدع في وصف قوسه وهي من الأصحاب الثلاثة الذين استعاض بهم الشاعر عن فقد أهله الذين لم ير خيرا في قربهم:

هَتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُونِ تَزِينُها رَصَائِعُ قد نِيطَتْ إليها وَمِحْمَلُ

إذا زَلَّ عنها السَّهْمُ حَنَّتْ كأنَّها مُرَزَّأةٌ عَجْلَى تُرِنُّ وَتُعْوِلُ

في استخدام الشاعر إذا الشرطية دلالة على حتمية الوقوع، فالسهم لا بقاء له مع القوس بل إنه وجد لغادرها، ومع تذلك فهي تحن إليه، وهذا هو جواب الشرط "حنّت" لوم يستخدم الفعل "حنّ" للدلالة على الصوت الفيزيائي الذي يحدثه وتر القوس فحسب، بل قد أضفى شيئا من المشاعر على ذلك الصوت "الحنين"، وسارت الصورة التي جاءت بعد الشرط في اتجاه تأكيد الدلالة الثانية، حتى يبين للمتلقي أنّ ذلك الصوت هو صوت ألم وجزع على الفراق، ليعمق من البعد الحجاجي للقرار الذي أعلن عنه في بداية القصيدة وهو قرار الرحيل، فما استشعرته روح الشاعر المرهفة في الجماد من حنين وألم يعبر عمّا افتقدته عند بني جلدتها، ويمكن تمثيل حال الشاعر مع قومه ومع قوسه كالآتي:

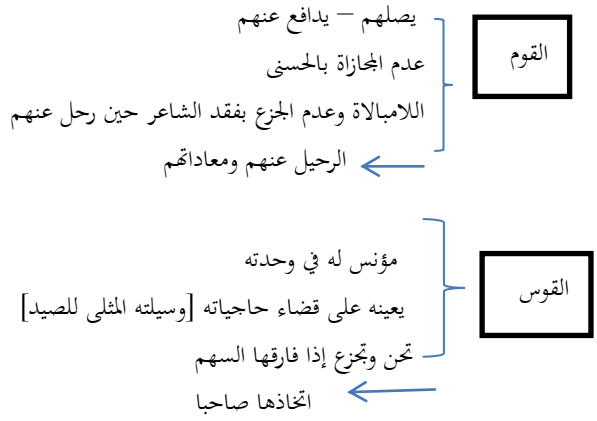

فإن يَك مِن جِنٍ ل أَبْرَحُ طارِقا وإن يَكُ إنْسا ما كَها الإنسُ تَفْعَلُ

في ثنايا تصوير الشاعر غارة من غاراته في إحدى الليالي شديدة الظلام، شديدة البرد يستدل على شجاعته بالأثر الذي خلفه في أنفس القوم الذين أغار عليهم إذ كانوا شديدي الحيرة في طبيعة المخلوق الذي تعرضوا لهجومه، وفي البيت أسلوبا شرط:

1- فَإِنْ يَكُ مِنْ جِنّ لأَبْرَحُ طارِقا

2- وإن يَكُ إنْسا ما كَها الإنسُ تَفْعَلُ

استخدم الشاعر مع الأسلوبين الأداة "إن" التي يغلب استخدامها مع المحتمل فالشرط معها لا يكون "مقطوعا بوقوعه"[24] فالمتحدث يجهل طبيعة المغير ولذلك يفتح باب الاحتمال، فإن كان من الجن فما أشد سرعته، وإن كان من الإنس فإن شدة السرعة والخفة تنفيان احتمال أن تكون الإغارة من كائن بشري، وقد ساهمت البنية الصوتية في البيت من زيادة الدلالة على الدهشة من السرعة الخارقة التي صحبت إغارة الشنفرى على تلك القبيلة فنجده يحذف العديد من الحروف: يك[ن]- ما[هكذا] أو ما[كهذا]، وكأن المتخاطبين قد انفلتت الحروف من بين ثناياهم لفرط ما أصابهم من دهشة.

وقد تضمن هذا الخطاب الشرطي نتيجة مضمرة يتوصل إليها المتلقي بأن ذلك الصعلوك الذي فارق القبيلة قد تحلى بصفات الجن فانفك ما كان بينه وبين المجتمع الإنساني من نقاط التقاء، فأصبح فعله من نمط مغاير لنمط أفعالهم.

2-5- الأفعال اللغوية:

أ- النفي:

من الأساليب الحاضرة بقوة في النص والتي يظهر بعدها الحجاجي أسلوب النفي الذي استخدمه الشاعر بقوة ليصور لنا ذلك التعارض بين النموذج الذي يسعى إلى تأسيسه وهو نموذج "الصعلوك المتمرد على القبيلة"، والنموذج الذي يسعى إلى هدم كل القيم المحيطة به وهو نموذج السيد المبتذل "ابن القبيلة"، وهذا ما نجده في الأبيات الآتية:

وَلَسْتُ بِمِئْيَافٍ يُعَشِّي سَوَامَه مُجَدَّعَةً سُقْبَانُها وَهْيَ بُهَّلُ
ولا جُبَإٍ أكْهَى مُرِبٍّ بِعِرْسِهِ يُطَالِعُهَا في شَأْنِهِ كَيْفَ يَفْعَلُ
وَلاَ خَرِقٍ هَيْقٍ كَأَنَّ فـؤادَهُ يظَلُّ به المُكَّاءُ يَعْلُو وَيَسْفُلُ
ولا خَالِفٍ دارِيَةٍ مُتَغَزِّلٍ يَرُوحُ وَيَغْدُو داهنا يَتَكَحَّلُ
وَلَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دُونَ خَيْرِهِ أَلَفَّ إذا ما رُعْتَهُ اهْتَاجَ أعْزَلُ
وَلَسْتُ بِمِحْيَارِ الظَّلاَمِ إذا انْتَحَتْ هُدَى الهَوْجَلِ العِسّيفِ يَهْمَاءُ هُوجَلُ

فهو إذ ينفي عن نفسه هذه الصفات يثبتها ضمنيا لغيره "فغاية الشاعر الحجاجية إنما هي إقناع المتلقي بسمو الذات ورفعتها، فهي ذات لا يقهرها الجوع ولا يذل الحرص، وهي ذات أبعد ما تكون عن الجبن وسوء الخلق والكسل، وهي أبعد ما تكون عن الضعف والاهتزاز، لا تعرف الخوف ولا الكسل، وهي أسمى من أن ترنو إلى الخمول أو مغازلة النساء والتشبه بهن في التزين والتكحل، وهي إلى ذلك كله لا تعرف الحيرة حين يحتار غيره"[25]، وهكذا مكّن النفي من بناء حجتين متعارضتين: أمّا الحجة الأولى فيثبت الشاعر عن طريقها شجاعته وبسالته ورجولته ورباطة جأشه، تلك الصفات التي رغم كونها صفات سيادة عند العرب إلا أنها ليست كافية في مجتمع طبقي يجعل المال شرطا على رأس قائمة صفات السيادة، أما الحجة الثانية فهي الصفات المثبتة لغيره، وغيره ليسوا إلا أولئك الذين ارتضوا العيش تحت لواء القبيلة سواء من الأذلاء والضعفاء والحمقى، أم من الخوالف من الرجال الذين ألهاهم التغزل بنسائهم عن خوض غمار الحياة بمختلف تجاربها.

ب- الاستفهام:

الاستفهام آلية حجاجية يصبح بها المخاطَب شريكا في صناعة الخطاب عن طريق بحثه عن الإجابات المحتملة، والتي تكون حجة محتملة في الغالب أراد صانع الخطاب من المخاطَب أن يصل إليها، ويمكن أن يكون الاستفهام مقدرا، كما يمكن أن يكون مصرحا به، فمن الاستفهام المقدر قول الشاعر:

ولي دُوْنَكُمْ أهْلُون : سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ

بعد أن أعلن الشاعر الرحيل وصرح برغبته في وصل قوم آخرين "يتبادر إلى الذهن سؤال عن القوم الذين سيميل إليهم فرارا من أذى أخواله وبغضهم، وأين مذاهب صعلوك أثخن في الأرض قتلا لأبناء عمه بني سلامان وحقدا على بني أبيه المتخاذلين"26، فيفاجئ كل متلق للخطاب تساءل عن وجهته بجوابه أنّ الأهل الذين استبدلهم بأهله ليسوا إلا: سيد عملس، وأرقط زهلول، وعرفاء جيأل.

كما يمكن أن يكون الاستفهام مصرحا به –أي صرح به لفظيا ضمن أبيات القصيدة- مثل قول الشاعر:

فَقَالُوا : لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلاَبُنَا فَقُلْنَا: أذِئْبٌ عَسَّ أمْ عَسَّ فُرْعُلُ
فَلَمْ يَكُ إلاّ نَبْأةٌ ثُمَّ هَوَّمَتْ فَقُلْنَا : قَطَاةٌ رِيعَ أمْ رِيعَ أجْدَلُ

بعد الإغارة التي قام بها الشاعر الصعلوك هاهو يرسم لنا ردة فعل من أغار عليهم عن طريق افتراضه حوارا دار بينهم يصور لنا مدى حيرتهم وتعجبهم ليجعل من ذلك حجة يقنع بها المتلقي أنّ شجاعته وسرعته ليس لهما نظير بين البشر، وأنهم قد احتاروا واندهشوا بسبب سرعته وخفة أثره التي لم تكن إلا كسرعة ذئب أو فرعل أو خفة قطاة أو صقر، بل إنها لا تشبه خفة إنس أو حيوان فهي ليست إلا كلمحة جني، وقد صاغ استفهامين تقمص فيهما دور الفريق السائل: أما الأول فهو: "فقلنا: أذئب عسّ أم عسّ فرعل؟" أما الثاني فهو: "فقلنا: قطاة ربع أم ربع أجدل؟" ليعبر عن مدى الدهشة والحيرة التي أصابت القوم جراء ما حلّ بهم.

3-5- ألفاظ الوصف:

تزيد ألفاظ الوصف من الطاقة الحجاجية للخطاب على تعدد أنواعها، ولذلك نجد الشاعر قد أسهب في توظيفها لتبرير موقفه العدائي الذي اتخذه تجاه القبيلة خاصة والمجتمع الإنساني عامة.

أ-الصفة: يستخدم المرسل الصفة وسيلة لإقناع المخاطب، يقول ابن يعيش: "وقد تجيء الصفة للتأكيد، نحو قولهم: أمس الدابر، وأمس لا يكون إلا دابرا [...] ومعنى التأكيد هنا أنّ مدلول الصفة استفيد مما في الموصوف، فصار ذكره في الصفة كالتكرار"[27]، فالتأكيد والتكرار لا يستخدمان إلا لزيادة التأثير في المخاطب.

في حديث الشاعر عن القوم الذين ارتضى أن يكون واحدا منهم نجده يقدم صفات ليستدل بها على أنّ الأهل الذين استبدلهم بأهله هم أهل يستحقون ذلك:

ولي دُوْنَكُمْ أهْلُون : سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ

وهو بهذا يسعى إلى إقناع ذاته أولا وإقناع غيره ثانيا بالقرار الذي اتخذه لأنه قرار صعب.

والأمر نفسه في استغنائه عنهم بثلاثة أصحاب ليسوا كهؤلاء الذين فارقهم:

ثَلاَثَةُ أصْحَابٍ : فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ وأبْيَضُ إصْلِيتٌ وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

فالفؤاد المشيع والأبيض الإصليت والصفراء العيطل أصحاب لكل منهم صفته التي ميزته عن غيره، فالفؤاد الذي لا يهاب المخاطر جعل الشاعر في وحدته وكأنه في جمع عظيم من الناس، وسيفه المجرد في أهبة كصاحبه للقتال، وقوس طويلة لا يردّ سهمها عن هدفه، وبهذه الصفات يحاول الشاعر "توجيه المتلقي بأساليبه المختلفة إلى وجهة محددة في الخطاب وهي تمرد الذات وقوتها حين تخلع القبيلة قبل أن تخلعها، ولكن الغائر من النص كشف لنا إلى هذا المستوى ذاتا جريحة تشعر بمرارة الرحيل وتتألم للفراق وتكبت رغبة شديدة في البقاء مع

الآخرين والتواصل معهم"[28]، فإمعانه في وصف الأصحاب لا يدل إلا على ذلك الصوت الجمعي الذي ينادي من أعماق ذات الشاعر التي لا تستطيع إلا أن تعيش مع الجماعة، ولكنها ترفض أن تعيش على الهامش، فصنعت مركزية جماعية جديدة استعاضت بها عن مركزية القبيلة، وهذه المركزية الجديدة فيها أهل هم من الوحوش وفيها أصحاب هم قلبه الجريء و سلاحه الجاهز للهجوم.

ب-اسم الفاعل:

مازال الشاعر يوظف جميع وسائل اللغة ليبرر موقفه، فهو بدل أن يتبرم بالواقع ويرضى به، اختار سلوكا رأى فيه عزة وإثباتا للذات:

لَعَمْرُكَ ما بالأرْضِ ضِيقٌ على امْرِءٍ سَرَى رَاغِبا أو رَاهِبا وهو يَعْقِلُ

نعم، اختار الشنفرى الرحيل الذي لم يحدد له وجهة معينة إلا تلك الأرض الواسعة التي يستطيع المرؤ الكريم أن يحيى عليها عزيزا، وقد استجمع في الشطر الثاني كل أصناف الرحيل: فقد يرحل المرء رغبة في تحصيل ما لم يحصله في المكان الذي كان مقيما به، أو رهبة وفرارا من سوء قد يلحق به، فاستهلال البيت بالقسم زاد من الطاقة الحجاجية للبيت، ليأتي بعده النفي العام لقرر مبدأً لا يقدر أحد على إنكاره فالأرض تسع كل ذي نفس عزيزة، وباستخدامه اسمي الفاعل "راغبا" و"راهبا" قد استجمع كل أصناف الراحلين –وهو منهم- فالمرؤ إمّا أن يرحل راغبا وإمّا أن يرحل راهبا، وفيه تلميح إلى أنّه سيرحل راغبا بنفس كريمة، وإن لم يفعل ذلك فقد يرحل راهبا لأنه لا يقدر على العيش دون ثأر، وبهذا سيفر لأن الجماعة التي هو فيها تأبى أن تتحمل تبعات ما يفعل، ليرتقي في نهاية البيت إلى أقصى ما يمكن أن يوظف من حجج، وهي قوله: "وهو يعقل" فالأصل في سلوك البشر هو العقل فمادام البقاء أو الرحيل –وهو المقصود- عن رغبة أو رهبة تصرفا صادرا عن عاقل لا يذم صاحبه خاصة إذا كان الذين عاشرهم لا خير في عشرتهم.

ج-اسم المفعول:

وإنّي كَفَاني فَقْدَ مَنْ ليس جَازِيا بِحُسْنَى ولا في قُرْبِهِ مُتَعَلَّلُ

هذا البيت ينبئ عن علاقة متوترة بين الشاعر والقبيلة، أو بين الصعلوك والمجتمع الإنساني، مما دفعه للاستغناء عنهم وبرر ذلك بعيوب فيهم، فهم ناكرون جاحدون إذ يمكن أن نستنتج أن الشاعر لطالما أحسن إليهم ولكنهم لا يقابلون إحسانه إلا بإساءة، ولما كان بحاجة إليهم لم يجد عندهم إلا النكران والجحود، ولذلك لا فائدة من بقائه بينهم "ولا في قربه

متعلل"، فاستخدامه اسم المفعول ساهم في بناء حجة في البيت تنبئ عن عدم جدوى البقاء مع الجماعة الإنسانية إذا كان ذلك مما لا ينتفع به.

د-صيغة التفضيل:

كل علاقة مبنية على الصراع يسعى فيها المخاطِب إلى أن ينسب المحامد إلى نفسه، في الوقت الذي ينسب المذمة إلى غيره، وأكثر الوسائل اللغوية المساعدة على ذلك صيغة المفاضلة، أو أفعل التفضيل، الذي يكمن دوره الحجاجي في "أنه يتضمن صيغا تمكن المرسل من إيجاد العلاقة بين أطراف ليس بينها أي علاقة بطبعها، كما أنّه يمكّنه من ترتيب الأشياء ترتيبا معينا، فبدون استعماله ما كان لها أن تترتب"[29]، وقد استخدمه الشنفرى بشكل مكثف، ويمكن أن نقسم هذه الصيغ إلى مجموعتين، المجموعة "أ" أوصاف خاصة بالمخاطِب،(أميل، أبسل، الأفضل، أطول، أبرح) من ذلك:

أَقِيمُوا بَني أُمِّي صُدُورَ مَطِيكُمْ فإنّي إلى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لأَمْيَلُ

أميل ⟵ الشاعر وإن كان بفطرته يميل إلى العيش داخل المجتمع البشري إلا أنّ ما أصابه فيه من ضيم جعله يميل إلى غيره، وهو مجتمع الوحوش، فالمفاضلة القائمة بين المجتمعين رجحت مجتمع الوحوش لأنّ فيها صفات –حسب الشاعر- لم يجدها عند بني جلدته، وهو بذلك لم يستطع أن يتنصل كلية من المجتمع الإنساني وإنما ما كان أرضى إلى قلبه لو بقي بينهم ووجد من العدل والإنصاف ما يحفزه على البقاء بينهم.

وَكُلٌّ أبيٌّ بَاسِلٌ غَيْرَ أنَّنِي إذا عَرَضَتْ أُولَى الطَرَائِدِ أبْسَلُ

أبسل ⟵ إنّ المجتمع الجديد الذي انتسب إليه الشاعر كانت خاصيته بسالة كل من انتمى إليه غير أنّ الشاعر أراد أن يوجه الخطاب إلى وجهة معينة وهي أنّه الأبسل، فبسالته كنت في أعلى السلم الحجاجي.

المجموعة (ب) أوصاف خاصة بغيره:

وإنْ مُدَّتِ الأيْدِي إلى الزادِ لم أكُنْ بأعْجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القَوْمِ أعْجَلُ

أشجع – أعجل ⟵ إنّ الاستراتيجية التي عمد الشنفرى إلى بناء خطابه وفقها هي تقديم مجموعة من الحجج المتوالة لكي يقنع المخاطَب أن رحيله لم يكن لسوء أخلاقه ولكن لعدم قدرته على الاندماج في مجتمع قائم على التمييز والظلم وحتى الجشع، وبذلك نجده حتّى بعد الرحيل ينفي صفة الجشع عن نفسه تلك الصفة التي تتنافى مع المروءة، واستعان باسمي تفضيل لبناء الحجة القائمة على النفي، فهو ليس بـ"أعجل" القوم في مدّ يده إلى الأكل لأنّ هذه الصفة ناجمة عن صفة أخرى أسوأ منها وهي صفة الجشع فهو ليس بـ"أجشع" إذ أنّ العجلة

علامة للجشع، وهو إذ نفاهما عن نفسه فليس من البعيد أن يثبتهما لغيره، وما أكثرهم في المجتمع البشري الذي رحل عنه.

5-4- الروابط الحجاجية

***حتى:**

ومما تتميز به حياة الصعلوك أنه قد يطول جوعه فلا يمكنه أن يحصل على ما يسد به رمقه، ليس من ضعف ولكن من عفة وترفع:

أُدَيمُ مِطَالَ الجُوعِ حتّى أُمِيتَهُ وأضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحا فأُذْهَلُ

لما اختار الشاعر حياة الصعلكة كان مدركا أنّ تحصيل القوت لن يكون أمرا هيّنا ومع ذلك سيحصل عليه بعزة نفس، ويظهر لنا كبرياء الشاعر من خلال تعبيره عن الجوع، فهو يوهم المتلقي أنه يجوع مختارا ويطول به ذلك "أديم مطال الجوع" وكأنه لم يجع فقرا، وإنما هو من أدام الجوع لغرض ما، وهذه هي الحجة الأولى قبل الرابط الحجاجي "حتّى"، لتأتي الحجة الثانية بعدها "أميته" وهي أقوى من الأولى، فقد يتبادر إلى ذهن المتلقي أن الشاعر يميت الجوع عن طريق تحصيل مأكله، ولكنه لا يميته إلا عن طريق التناسي والإغفال، لتقودنا هاتان الحجتان إلى نتيجة فحواها أنّ الشاعر يتحلى بصبر وقوة تحمل يمكنانه من تناسي الجوع إن لم يحصّل قوته بكرامة، ويمكن تمثيل ذلك كالآتي:

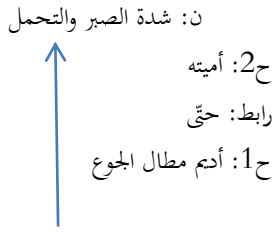

استمر الشاعر -الصعلوك- عبر أبيات القصيدة منافحا عن قراره الذي اتخذه، فهو لولا اجتناب المذمة لاستطاع تحصيل المأكل والمشرب:

ولولا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لم يُلْفَ مَشْرَبٌ يُعَاشُ به إلاّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ

وَلَكِنّ نَفْسا مُرَّةً لا تُقِيمُ بي على الذامِ إلاّ رَيْثَما أتَحَوَّلُ

ثم استخدم الرابط الحجاجي "لكن" الذي يربط بين حجتين أو دليلين و"الدليل الذي يرد بعد لكن يكون أقوى من الدليل الذي يرد قبلها وتكون له الغلبة، بحيث يتمكن من توجيه القول بجملته، فتكون النتيجة التي يقصد إليها هذا الدليل ويخدمها هي نتيجة القول برمته"[30]،

فالدليل الأول: إمكانية حصول الصعلوك على المأكل والمشرب، والدليل الثاني –الوارد بعد الرابط لكن-: مرارة نفس الشاعر، والتي قصد بها أنّ له نفسا صعبة أبية ليصبح الشاعر منقادا لها رغم ما يعانيه من جوع وعطش، وهنا نجد اللغة تضطلع "بوظيفة حجاجية هامة فقوله "لا تقيم بي" يجعل النفس الصعبة الأبية فاعلة والشاعر الصعلوك مفعولا به، إنها نفس ذات سلطة مطلقة عليه فلا خيار له بعد خيارها، وخيارها الوحيد هو التنقل عن المكان إذا كان فيه ما يعيبها"[31]، وقبل أن نمثل حجاجيا للوظيفة التي أداها الرابط "لكن" نجري قياسا انطلاقا من مقدمتين:

م1: كلّ إنسان يجوع.
م2: الصعلوك إنسان.
ن: الصعلوك يجوع.

فهو لا يستطيع ادعاء عدم الجوع، وإنّما يصنع حججا أخرى ليقنع بها المخاطب:

ن: وجوب الرحيل للحصول على الرزق تفاديا للمذمة
ح2: نفسه المرة تأبى الضيم.
الرابط: لكن
ح1: قدرة الشاعر على تحصيل المأكل والمشرب بطرق شتى

5-6- روابط القصر:

***إنما:**

حظي القصر باهتمام البلاغيين وذلك لدوره البارز في تقرير الخطاب وتوكيده، فهو "ضرب من التوكيد وتكرير لجملة الخبر الابتدائي مرتين أو أكثر"[32]، وذلك حسب حال المخاطب ودرجة إنكاره، إمّا من أجل إقناعه، وإمّا من أجل تغيير قناعته، فهو بهذا يعتبر من أمثل الوسائل المساهمة في بناء السلم الحجاجي.

وأُعْدِمَ أحْيَانا وأغْنَى وإنَّما يَنَالُ الغِنَى ذو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ

ما زال الشعر ينافح عن المبدأ الذي تبناه، بل وعن الفقر الذي أكره عليه –فلا أحد يختار أن يكون فقيرا- وسخر لذلك العديد من الوسائل اللغوية مستخدما في هذا البيت أسلوب القصر بـ"إنّما"، ليقوض عرفا سائدا عند الناس وهو احتفاؤهم بالأغنياء وسعيهم الدؤوب للتقرب منهم، فعمل على إبطال تلك الفكرة واستبدالها بفكرة أخرى، وهي أنّ المتعفف قد

يعدم ويغنى وهو الذي يستحق المكانة الرفيعة، أما الغني الذي لم تصبه فاقة فما هو إلا انتهازي سخر حياته لتحصيل الغنى مع إمكانية تفريطه في تحصيل المكارم، وفي هذا النوع من الحجاج تعريض بالأغنياء الذين عرفوا بالبخل وابتعدوا عن مكارم الأخلاق، وهم الذين كان يتعرض لهم الصعاليك عادة، ويمكن أن نستنتج أربعة نماذج بشرية:

1-الفقير المتذلل 2-الفقير القوي المتعفف

3-الغني المتبذل 4-الغني المتكرم

فالشاعر يجمع بين صورتي الفقير القوي الذي يصبر ولا يجزع ويستطيع تحصيل قوته بحسامه، والغني الذي لا يبطره الغنى ولا يبعده غناه عن مكارم الأخلاق، وهو في المقابل يرفض الصورتين المقابلتين، أي: الفقير الذي ارتضى الذل والهوان على نفسه كي يحصل على قوته بامتهان كرامته، والغني الذي قصر نفسه على جمع المال وابتعد عن شيم المروءة والكرم.

***لا... إلاّ:**

في خضم تقديم الشاعر حججه المتوالية من أجل إثبات شجاعته وصبره وقدرته الفائقة على التحمل، وأنّ الليالي التي كان اصطباره فيها على البرد الشديد لا يقل عنها عدد تلك الأيام التي كان يصطلي فيها بحرّ الصحراء استخدم القصر بالنفي والاستثناء:

وَيَومٍ مِنَ الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ أفاعِيهِ في رَمْضائِهِ تَتَمَلْمَلُ

نَصَبْتُ له وَجْهِي ولا كِنَّ دُونَهُ ولا سِتْرَ إلاّ الأتْحَمِيُّ المُرَعْبَلُ

ففي قوله: "ولا ستر إلا الأحتمي المرعبل" أراد الشنفرى إقناع المخاطب بصفة راسخة تحلى بها وهي دليل قاطع على أنّ ذلك الفارس -الصعلوك- كان الأجدر بقبيلته أن تحافظ عليه، وتحتفي بوجوده بين أفرادها، لا أن تهمشه لينبذها ويميل إلى غيرها، لتكون التقنية الحجاجية بـ"لا...إلا" مساهمة بشكل عميق في صناعة الحجة، فلم يكن للصعلوك ما يتقي به البرد كما لم يكن له ما يستتر به عن الحر الشديد إلاّ تلك العباءة التي اهترأت، فهي لا تدفع بردا ولا ترد حرّا، وليس ذلك إلا عن تعفف وقدرة على التحمل.

6- الآليات البلاغية:

قصيدة الشنفرى ملآى بالصور والتعبيرات الفنية، ولكن يمكن نقتصر على التشبيه لاستقراء بعده الحجاجي:

التشبيه:

يعتبر من أهم روافد العملية الحجاجية "ولا شك أنّ تقنية التشبيه –بما قد يلزم عنها من توازن طاقتي الإخبار والإيحاء- أقدر التقنيات البلاغية على تحقيق هذا التقارب أو على التخفيف من صدمته وغرابته [...] فالتشبيه أداة بلاغية تبدو أقرب إلى الشرح والتوضيح ومن ثمّ الإقناع الذي هو غاية حجاج"[33]، ونظرا لطبيعة النص نجد الصور قد صنعت بمكونات البيئة التي نظمت فيها القصيدة.

وقد عمد الشنفرى إلى صناعة ضربين من الصور، أحدهما كان بسيطا أمّا الآخر فهو عبارة عن صور كبرى يمزج فيها الشاعر عددا من ألوان البيان لترتسم تلك الصورة الفنية البديعة وتتحرك فيها الصحراء بكل كائناتها أمام أعيننا، ويغير الصعلوك فتنشط جوارحنا معه لمعرفة نتيجة إغارته، ونجعل من كل ذلك مبررات لأفعاله، ونقول أنه لم يفعل ذلك متعمدا وإنّما اضطر إليه اضطرارا.

وإنّنا نجد ملامح مفارقته جماعة البشر ليخالط أقواما آخرين من الوحوش، ويصحب آلات من السلاح ظاهرة في تشبيهاته إذ قد يشبه الجماد بالإنسان ويشبه الحيوان بالإنسان، كما قد يشبه الإنسان بمخلوقات من عالم الحيوان، فلا فرق عنده بين تلك العوالم، إذ أنّ استئناسه أصبح بما لا يستأنس به غيره من بني جلدته، واستوحاشه صار من الإنسان.

ومن تلك التشبيهات البسيطة:

إذا زَلَّ عنها السَّهْمُ حَنَّتْ كأنَّها مُرَزَّأةٌ عَجْلَى تُرِنُّ وَتُعْوِلُ

شبه الشاعر صوت القوس إذا انطلق منها السهم بصورة المرأة التي حلت بها مصيبة فاعتلى صوتها بالصراخ والعويل، نجد الشاعر يقابل بين طرفين ليس من السهل المقابلة بينهما، فرنين الوتر وعويل المرأة لا يوجد بينهما جامع ظاهر إلا ما أراد الشاعر أن يحيل إليه، فهو يومئ للمتلقي بأن ما دفعه للرحيل وجعل القوس أحد الأصحاب الجدد هو تلك الصفة التي افتقدها في المجتمع البشري، فليس الرابط إلا ذلك الألم الذي يعانيه الشاعر في أعماقه حيال كونه منبوذا في قبيلة أبيه وكذا قبيلة أمه التي ارتحل إليها، ولم يأبه أحد لذلك الرحيل ولكن العلاقة الجديدة التي سعى الشاعر إلى تأسيسها بين المرأة والقوس هي مدى تعلقهما بالذات المغادرة، فالمرأة لا يكثر عويلها إلا إذا افتقدت عزيزا، كما أنّ القوس إذا رحل عنها السهم حنت وأصدرت صوتا كصوت العويل، ليكون ذلك حجة قاطعة يبرر بها الصعلوك نفوره من القبيلة وحيله عنها والرغبة الشديدة في الانتقام من أفرادها.

ومن الصور المركبة تلك الصورة التي امتزج فيها التمثيل بالسرد امتزاجا زاد من حجاجية خطاب الشاعر من أجل تعميق الهوة بينه وبين المجتمع الإنساني، إذ نجد الصعلوك

يشبه نفسه بذئب جائع باحث عن القوت، فامتزجت ذاته مع ذات الذئب حتى أصبح المتلقي يسأل نفسه عن مقصدية الشاعر، لا عن غموض ولكن بسبب زوال واضمحلال المفارقة بينهما، ليتساءل: من المقصود في القصة الذئب والمجموعة المحيطة به؟ أم الصعلوك والجماعة الملتفة حوله؟ وهذا يحيلنا إلى تسمية العرب الصعاليك بـ"الذؤبان" إذ يؤكد تصوير الشاعر أن لا فرق بين حياة الذئب وحياة الصعلوك، ونظرا لخبرة الشاعر وتمرسه بحياة الخلاء ومعرفته الدقيقة بأوصاف الذئاب زيادة على قدرته الفائقة على التصوير نجده يبرع في تصوير الذئب الجائع الباحث عن الطعام المستغيث بذئاب لا تقل عنه نحافة ولا جوعا ولكن دون جدوى ليعلو ذلك الصوت الحزين من الأعالي، وما أشجن صوت عواء الذئاب مجتمعة! ليستحضر ذلك الصوت صورة المرأة مرة أخرى في القصيدة، فشبه الشاعر الذئاب التي خابت مساعيها في الحصول على القوت بمأتم فيه نساء ثكالى تعزي بعضهن بعضا، ليخلص في خاتمة الوصف بحكمة مفادها أنّ الصبر أجمل من الشكوى، غير تارك المجال مفتوحا أمام المتلقي للاستنتاج بل أعطاه نتيجة المشهد، فلا يشعر بألم الصعلوك إلا من شاركه الألم وقاسمه المعاناة، وهذا الصعلوك الذئب الذي اكتفى هنا بمشاركة جماعته المعاناة هو الذي سيغير على قبيلة ليرمل نساءها ويتيم ولدانها لا لشيء إلا لاستعادة حقه المسلوب ليكون ذلك مبررا للعداء بينه وبين المجتمع الإنساني.

وفي الأخير يمكن أن نخلص إلى أن الشنفرى قد استطاع أن يوظف وسائل اللغة وأدواتها الطبيعية من أجل العملية الإقناعية، فأخذ خطابه الشعري بعدا حجاجيا لا يمكن إغفاله أو المماراة فيه، وقد تجلى ذلك من خلال بعدين، الأول: تبرير الرحيل بحثا عن النفس الحرة الطليقة التي تأبى الذل والهوان وإن كان ذلك عن طريق الاندماج في مجتمع الوحوش، والثاني: عداءه للمجتمع الإنساني وكثرة إغاراته عليه لأنه لم يلاق فيه إلا الظلم والتهميش والتحقير، وقد وفق الشاعر إلى استمالة المخاطبين والتأثير وإقناعهم عن طريق استثماره الفعال للآليات اللغوية والمزج بينها مزجا بديعا، فهو بعد أن سابق القطا وتماثل حاله بحال الذئب هاهو يندمج مع عالم الوحوش اندماجا كليا، فإذا كان كل إنسان يأوي بعد التعب إلى بيته لتلتف حوله أسرته ويلاعب أولاده فإن الصعلوك سيأوي إلى الأعالي بين الوعول والوحوش، وكل أشكال المعاناة التي صورها ليست إلا لتبرير الكره والحقد الذي يكنه للمجتمع البشري، أمّا حالة الاندماج الكلي مع عالم فليست إلا دليلا على أن نفسه مازالت تتوق إلى الأسرة والقبيلة

والجماعة الإنسانية عموما، وأن الرحيل لم يكن خيارا بين مجموعة من الخيارات، وإنّما كان الخيار الوحيد فمال إليه مكرها.

مراجع البحث وإحالاته:

1- الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تح: محمد إبراهيم،وعلي البجاوي، ط:01، 2006،ص :100

2-ينظر: تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، دار المعارف، ط:24، 2003، ص:67.

3-شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1987، ص :18

4-الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي يوسف خليف، دار المعارف، القاهرة، ط:03، ص:25.

* مع أن بعض الدارسين يعترض على ما ورد في هذا التعريف لأنه في نظره غير جامع ولا مانع، فهذه الصفات قد يشترك فيها الصعلوك مع غيره من لصوص وقطاع طرق وغيرهم، ولذلك فهو يرى أنّ "الصعلكة احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم" شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، ص:85.

5- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، ص:154.

6- جدلية القيم في الشعر الجاهلي، رؤية نقدية معاصرة، بوجمعة بوعبيو، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2001، http://www.awu-dam.org، ص:72

7- ثنائية الأنا والآخر، الصعاليك والمجتمع الجاهي، عبد الله تريسي، التراث العربي، ع:121،120، كانون الثاني،نيسان، 2011، دمشق،ص:188.

8- موسوعة الشعراء الصعاليك، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، حسن جعفر نور الدين،ج:02، رشاد برس، لبنان، 2002، ص:79.

9- يروى هذا الأثر عن عمر بن الخطاب، وقد نسبه إيميل بديع يعقوب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. ديوان الشنفرى، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:02، 1996، ص:18.

10- ينظر: ديوان الشنفرى، ص:18/17

11- نقلا عن المصدر نفسه، ص: 19

12- الديوان، ص:18

13- آليات الحجاج وأدواته، عبد الهادي بن ظافر الشهري، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج:01، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2010، ص:80.

14- استراتيجيات الخطاب، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، ص:475

15- أشكال التواصل في الخطاب القرآني، دراسة لغوية، مرسلي مسعودة، رسالة دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2014، ص:265

16- أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة، فاضل الساقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1977، ص:322

17- شرح المفصل للزمخشري، ابن يعيش، تح: إميل بديع يعقوب، ج:05، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 01، 2001، ص:128

18- استراتيجيات الخطاب، ص:480.

* تختلف الروايات حول أسباب رحيله، يمكن العودة إلى ديوان الشنفرى، ص:10، وما يليها.

19- دراسات في الحجاج، ص:16،17.

20- في حجاج النص الشعري، محمد العيد، إفريقيا الشرق، المغرب، 2013، ص:63.

21- دراسات في الحجاج، سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط:01، 2009، ص:17

22- سورة النساء، الآية:97.

23- الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، عالم الكتب، الأردن، ص:336

24-في النحو العربي، نقد وتوجيه، مهدي المخزومي، دار الراشد العربي،بيروت، ط:02، 1986، ص:290.

25- دراسات في الحجاج، سامية الدريدي، ص: 22\23

26- عذابات الشنفرى، قراءة في سيرته وشعره، فاروق أسليم، أفاق المعرفة، مجلة المعرفة الدمشقية، ع:446، أكتوبر:2000، ص:229.

27-شرح المفصل، ابن يعيش، ج:02، ص:234.

28- دراسات في الحجاج، ص:21.

29- استراتيجيات الخطاب، ص: 528.

30- الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، الأحمدية للنشر، المغرب، ط:1،2007، ص:44.

31- دراسات في الحجاج، ص:23.

32- الحجاج في القرآن الكريم، عبد الله صولة، دار الفارابي، ط:02، 2007، ص: 256.

33- في حجاج النص الشعري، ص:76.